



## ضوء في آخر القرن

كم تبدو بعيدة مخاوف سنة ٢٠٠٠ عندما نسترجعها الآن، حتى قبل ان ينصرم العام. فهنا على الأقل، في هذه البقعة من العالم، كانت الألفان سنة خير. واذ ينطوي قرن الاحباط والدم والهزائم، تبرز نقطة الضوء الشحيحة في آخره لتحتنا، نحن اجيال الذين يتخضرمون بهذا الانقلاب من ألفية الى اخرى، على التطلع الى العالم الآتي بشيء من هذا التفاؤل الذي نسينا، وبالكثير من الرجاء الذي لا ينسى.

سنة خير الألفان؟ في المحصلة نعم، وان توجب ان نتذكر كل الذين طحتهم، في جنوب لبنان قبل تحريره، وفي باقي اجزاء البلاد على مرّ الشهور، وفي فلسطين المنتفضة من قرن الى قرن، وفي العراق المحاصر مرتين، مرة من الخارج وثانية في الداخل، وفي مصر الغلبانة رغم النمو، وفي الجزائر الساعية الى ونامها، وفي كل اصقاع الارض التي تنأى عنها الحرية والسلام والرفاه. لكنها سنة خير بالتأكيد لهذه البقعة من العالم، هنا في شرق المتوسط الذي ادماه القرن الداوي.

سنة خير للبنان، وكيف لا تكون عندما يتحرر خلالها ما كان بقي في قبضة الاحتلال الاسرائيلي، وعندما تتهاقت سياريوهات الكارثة التي ما برح ينسجها مدعو القيادة ودعاة الاذعان، وعندما ينقلب الجو من خوف على المصير الى يقين بقرب تصحيح المسار، وفل المسارين، هذين المتلازمين آنفاً. وسنة خير لفلسطين، وكيف لا تكون حين تعود القدس قبلة للعرب، وحين ينهض الاستقلال من اجتماع الاستعصاء الشعبي والحنكة السياسية في مشهد يحيل كل الذين تباروا في تخوين شعب فلسطين وقيادته على خجلهم (ان كانوا يخلون)، وحين تبدأ المعادلة القديمة بالانعكاس فيغلب الضياع على اسرائيل وسياسيها وعسكرها ومستوطنيتها.

بل سنة خير لسوريا ايضاً، وفي المقام الاول، وكيف لا تكون متى بدأت هموم الشعوب العادية تتسرب اخيراً الى السوريين فيتطلعون الى اخبار كانت بدت قبل حين تافهة، كتحرير استيراد السيارات والعمل ببطاقات الائتمان والافراج عن الانترنت، وان بقيت كل هذه التغييرات بعيدة عن منال عامة الشعب. وكيف لا تكون سنة خير متى يأخذ جسم مخدر يستفيق الى "نهاية الانقلاب" التي كان الياس خوري قد استشف معالمها قبل عام. سنة خير كانت خاتمة قرن من الشؤم.

لكن الخروج من هذا القرن يتطلب اكثر من مجرد القفز من الصفر الى الواحد. يلزمه خصوصاً ان تأتي السنة الاولى بعد الألفين بالمزيد من الخير، وفي المسارات الثلاثة التي بدأت ترسم: انجاز استقلال فلسطين، واستعادة استقلال لبنان، وعودة سوريا الى موقعها الطبيعي في قيادة عروبة تلخ اخيراً لباس العسكر واقنعة المخابرات لتحاكي الحرية التي كانت في اساسها وتصلح الحياة بعد طول عبوس. استدراك: ربما وجب اعادة ترتيب التحديات بطريقة مختلفة.

فالى اهمية اعتناق لبنان من نظام الحماية ورفع الوصاية عنه وعن رجال السياسة فيه (وان لم يشاؤوا)، والى ضرورة نهوض فلسطين دولة مستقلة تستجمع قدراتها وشتات شعبها لمواجهة سلمية قد تكون اصعب من مواجهات العنف، لعل ما قد يحدث في سوريا، ان حدث، هو الذي سيحكم اطلالة الألفية الثالثة علينا. تثير احياناً اهتمامات الرئيس السوري الجديد بالتكنولوجيا الاتصالية والمعلوماتية شيئاً من التهكم الخفي، وخصوصاً في لبنان حيث يتباهى الكثيرون بالتفوق على



السوريين "حضارياً" فيما يتراكمون لنيل بركة لواء مقيم من ضباطهم او حتى نقيب من جهاز امنهم. لكن مثل هذا التباين خطأ. ليس فقط في المبدأ، ولا قياساً بالمقدرات الفعلية المتوافرة في سوريا او في شتات نخبها، بل لأن هذا الهم هو دليل الى التحدي الاكبر المطروح امام العرب اليوم: انجاح عولمتهم بعدما اخفقوا في موافاة كل مواعيد القرن العشرين. ولذا تحديداً، يشكل تحديث سوريا في بداية القرن الجديد واحدة من اولى الاولويات.

لا تختصر سوريا كل العرب. ولكن ما قد يحدث فيها، ان تأكد حدوثه، سيكون لبنة اساسية في بناء عربي يرفع التحدي، نموذجاً للعراق التائه، وعضداً لمصر الداخلة هي الاخرى في معضلات العولمة، وسنداً لفلسطين التي لن تقوى على رد هجمات اكبر اقتصاد في المنطقة ان لم تندمج في عمقها العربي، والشامي اولاً، وتوأماً للبنان اقتصاد المعرفة، ان نجح في الافلات من رأسمالية القرن التاسع عشر التي ما فتئت تُحصنها عقلية التجار والشطار. ليس التحدي رابحاً بالضرورة.

فبينما كان العرب يدججون الاسلحة البالية، تفجرت الثورات المعلوماتية، الواحدة تلو الاخرى، واطل الاقتصاد الجديد فتأقلمت معه اسرائيل حتى ابتعدت سنوات ضوئية عن الاقتصادات العربية. لكن الهوة، رغم ما قد يبدو، تظل قابلة للردم، ربما اكثر ما كانت عليه الحال في زمن الثورة الصناعية الاولى. وفي اي حال، يتضح من بعض النجاحات العربية في صناعات المال والاتصال ان العولمة قد تكون اكثر رافة بالعرب من المراحل الرأسمالية الاخرى. غير ان للرأفة شرطها وهو مبارحة وضعية التلقي الساكن للاقبال على العصر، وشرط الشرط مجتمعات عربية متعافية لا تعود تحسب الاقدام مغامرة ولا الخيال تهديداً لأمن الدولة.

انها ثورة كوبرنيكية ما يدعى اليها العرب كما يُدعى غيرهم. لكن صعوبتها عند العرب انها تترافق مع ثورة ثانية، تلك التي بدأت تغير نظرتهم الى اسرائيل. لا كعدو، بالاقبل حتى انجاز السلام على جميع الجبهات. وانما كجار رغباً عنا نعرف ان قُدرنا، بعد السلام ولعقود عدة، يقضي ان نظل نواجهه، ولو بأسلحة السلام وحدها. ثورتان اذاً نقلب بهما قرن الاحباط والدم والهزائم. ثورتان وشرارتهما واحدة: استعادة حرية التفكير والتعبير بعيداً عن هوس رجال الامن وحراس الظلام. هذا ما يسمى عادة الديموقراطية. لنقل انه مصالحة مع الذات.

**سمير قصير**



|                     |                     |  |
|---------------------|---------------------|--|
| <b>Id-Reference</b> | <b>00-Pr-000435</b> |  |
| <b>Media</b>        | <b>(Support)</b>    | HC   |
| <b>Title</b>        |                     | ضوء في آخر القرن   |
| <b>Subtitle</b>     |                     |  |
| <b>Section</b>      |                     |  |
| <b>Language</b>     |                     | عربي   |
| <b>Source</b>       |                     | النهار   |
| <b>Page</b>         |                     |  |
| <b>Date</b>         |                     | ٢٠٠٠/١٢/٣٠<br>30/12/2000                                 |
| <b>Author</b>       |                     | سمير قصير  |
| <b>Co-Author</b>    |                     |  |
| <b>Keywords</b>     |                     |  |
|                     | <b>Persons</b>      | الياس خوري   |
|                     | <b>Locations</b>    | لبنان - سوريا - فلسطين - عراق - مصر - جزائر -<br>اسرائيل |
|                     | <b>Dates</b>        | ٢٠٠٠   |
|                     | <b>Themes</b>       | لبنان - احتلال اسرائيل - فلسطين -<br>صراع عربي.اسرائيلي  |
| <b>Subject</b>      |                     |  |